

المعاشرة وأثرها في الخلق

للشيخ أبو الطيب سليمان

« المرء على دين خليله ، فليَنظر أحدكم من يخالط »

حديث شريف

حديث شريف فاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكمة من حكمة البالغة ، قرر بها مبدأ خلقيا معروفا ، وأرشد بها إلى ما للمعاشرة من أثر بالغ عميق في الأخلاق . « المرء على دين خليله » ، على طريقته ومنهاجه ، وأسلوبه في سيرته الخلقية ، أخلاقه صيرة من أخلاقه ، وعاداته متأثرة إلى حد كبير بعاداته ، إذا كانت نبيلة فاضلة فهي مثلها ، أو كانت غير ذلك فهي نظيرها . « فليَنظر أحدكم من يخالط » وليحتر أخلاق من يعاشر أو يجالس قبل أن يضع يده في يده ، ويصطفيه لأخوته ، وليحذر أن يطلق لنفسه العنان ، ويرسل لما الحبل على الغارب ، تتنقل كما تشاء ، وتعاشر من تشاء ، وتعيشى من المجالس ما تهوى من غير أن يقيدتها في ذلك بحيث أر تقتص عن حال من تجالس ، ويول من تعاشره ، والإلتصاف بحفنه بيديه ، وتعجل لنفسه السقوط الأدبي والخسار الأبدي .

ها نحن أولاء نرى الماء البارد ، وهو السائل اللطيف المنعش ، لا يكاد يجاور النار قليلا حتى يهجر سريرا خواصه ، ويفارق نعوته وأوصافه ، ويستحيل إلى سائل محرق فذاك مهلك ، إذا لامس البشرة أفسدها وشوهها ، وإذا خالط الأمعاء نظمها وأتلفها . فإذا ما جاور النالج طغى عليه بقوته ، وسيطر عليه برودته ، فأفنى ذاته في ذاته ، وأذهب سيولته ، وأكسبه خاصيته ، وصيره نلجا مثله .

فإذا كان هكذا تأثر الماء بالمجاور وهو جماد لا حس فيه ، ولا إدراك عنده ، فكيف يكون تأثر الإنسان وهو الذي تسيطر عليه غريزة التقليد والمحاكاة في جميع أدوار حياته ، وتخضعه لسلطانها ، وتتحكم في اتجاهاته وميوله من مهدد إلى لهدد ؟ إنه ولا شك سيكون أعمق برأيه أثرا ، بل إننا نقول إن الإنسان في جميع حركاته وسكناته هو مجموعة ألوان ضللت كلها عن غريزة المحاكاة ، وكانت هي العامل الأول الفعال في تكوينها وإبرازها ، فشيء على رجله متشبهاً بمحاكاة ، وأكله وشربه بالكيفية المعروفة بمحاكاة ، ولغته الخاصة بمحاكاة ، ومزاجه الخاص أسسه المحاكاة « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وما قول علماء النفس ، وأساتذة الأخلاق ؟ « التربية من البيت تخرج وإلى

نابت تعود « إلا صدق لما عرفوه عن سلطان هذه الخريزة ، وتقديرها لما للبيئة الخاصة من أثر في توجيه الشخص ، وإبراز ما كن فيه من استعداد .

ولقد تناول صلى الله عليه وسلم هذه الناحية من الاستعداد الإنساني في حديث آخر بقدر أوفى ، وإيضاح أوسع . حيث يقول : « إنما مثل المجلس الصالح والجليس السوء كمثل المسك ونافخ الكبر ، فأهل المسك إما أن يحزرك ، وإما أن يتباع ، وإما أن تجرد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكبر إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » وهو حديث نزع فيه الرسول الكريم إلى التمثيل ، وإبراز المعنويات في ثوب المحسات تقريبا للفهم ، كما فعمل فيه ما أجمل في الحديث الأول ، بالإشارة إلى تنوع الأثر النفسي المترتب على المعاشرة ، واختلافه قوة وضعفا ، وخفاء وظهورا ، بحسب تنوع النفوس ، وتفاوتها في قابلية الخير ، أو المناعة ضد الشرور والأمراض النفسية ، على طراز ما نراه في انتقال أي مرض عن طريق العدوى من الأجسام المريضة إلى السليمة .

بيان ذلك : أن في الحديث بجانب الجليس الصالح ثلاث كلمات : إعطاء على قبيل الهبة ، أو ابتعا من صاحب البطر ، أو وجدان الريح الطيبة — أي عن طريق الشم — وبجانب الجليس السوء كلمتين : تطاير الشرر المؤدى إلى احراق الثياب ، أو وجدان الريح الخبيثة . وهي المدخان الوارد في حديث آخر . وبديهي أن لكل لفظ من هذه الألفاظ في الحس معنى يغاير معنى الآخر . ويتفاوت بالنسبة إليه الأثر المترتب عليه . والأمر فيما معنا كذلك .

فطيب النفس نقي السريرة إذا جالس الأخيار من علماء وصالحين ، زادوا جوهره فقاء ، ونفسه تمهفاء ، وكان انتفاعه بحكمهم ، وإتمامه بأحوالهم ، وامتداده إلى العمل بنصائحهم بالغاية ، وأفيا بالمراد ، وذلك ما يشير إليه قول الحق سبحانه : « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » فضمه عظيم ، ونصيبه من الخير كبير جسيم . أما إذا جالس الأشرار الغافلين ، العصاة المصدرفين عن ربهم ، المفتونين بملذاتهم وشهواتهم ، فإن الضرر الذي يصيبه منهم لا يكون الا يسيرا ، غاية تسوة تنغشى قلبه ، وتقل عن الخير يعرقل جهده . ومن ذلك ما ذكر عن الشافعي رضي الله عنه ، « ما جالست سفيها الا وأحسست بنقل في الجنب الذي يليه » ، وهذا هو الذي أشير إليه في الحديث بكلمة المدخان أو الرائحة الخبيثة .

أما من لم تخلط حلوة العطاء قلبه ، أو كان قريب عهد بتوبته ، أو حديث عهد بخير ، فهذا وإن كان يستفيد قطعا من مجالسة أهل الكمال النفسي ، إلا أن استفادته منهم محدودة ، وحظه ضئيل نوعا للغاية الزوجة السابقة عليه ، وتاء آرها في عصابه ومشاعره . وس ثم

يكون ظهوراً الأثر عليه مبدئياً غير ملحوظ إلا للدقيق الملاحظة. ولكنه إذا خالط أهل الشر وأئس بهم وركن إليهم ، خطى مريعاً إلى صفتهم ، وانضم في أقرب وقت إليهم ، وربما سبقهم إلى الشر ، وانضمهم في الإجماع . وهذا هو المشار إليه في الحديث بإحراق الثياب .

وكما أن آثار الرائحة الطيبة تزداد وضوحاً في ملابس من يجالس بائع العطر إذا ما أطال الجلوس أو كرره ، وآثار الدخان تزداد أيضاً ظهوراً في ملابس من يجاور الحداد إذا ما أطال الجلوس أو كرره ، كذلك الحال في مجالس الأثرياء ومخالط الأشرار ، لا يكاد أحدهم يحس بالأثر في المبدأ ، ولكنه كلما عاود المحادثة وكرر الاختلاط ظهر طابع من يتخالطهم عليه ، وأحدث تطوراً في تصرفاته وأخلاقه رضى بذلك أم كره . ولقد زدنا نعدد الشواهد والأمثلة على ذلك من ذكرياتنا الماضية لطال بنا الحديث جداً .

فليحذر أولئك الذين يهملون هذا الأمر ، ويقذفون بأنفسهم في أحضان البيئات الفاسدة ، غروراً بالنفس واستعداداً للعدوى من خلال سوء زاعمين أن لهم من مائة أخلاقهم خير عياد ، وليعلموا أن النفس والشيطان كثيراً ما ينبران بالشخص ، ويوهمانه من نفسه القوة ، ومن أخلاقه المتانة ، وهو من الضعف الخلق والرقدة الدينية بمكان ، وليأخذوا لأنفسهم من حال الفريعة ، فالعاقل من وعظ بنيره . وكما أفسدت مجالس سوء ، وعشرة أهل سوء فخرساً ، وكما لوشت أرواحاً طاهرة ، وحاراتها عن صراطها المستقيم إلى طريقها المموج الشائك .

ليحذر المتهاونون العاقبة في أنفسهم وفيمن وكل إليهم من أهل وأولاد ، ليفحص الأب حال البيئة التي يختلف إليها أولاده ، وليتعرف على أخلاق من يرتبطون بهم برباط الصداقة والمعرفة ، وليتحسس أبناء زائرات منزله ، والمختلفات إلى أهله وبناته ، ليفر المستقيمة ويقبلها داخل منزله ، ويصل على أبعاد المهوجة ، والحيادية بين أهله وبناته ، وليكن حازماً في موقفه ، حكماً في تصرفه والله يهدينا جميعاً سواء السبيل .

أبو الطيب محمد سليمان

واعظ القاهرة